

حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها للعظيم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثالث . شهر رمضان - ١٤٢٤هـ / تموز - ٢٠١٢م



مسجد الكوفة للعظيم سنة ١٩٢٥ م يظهر فيها محراب أمير المؤمنين
وبنيّة الحارث بن النعمان للأسفد والصالحين



دَوَائِلُ الْوَقْتِ الْبَاقِي
أَقْلَامُ مَنَاحِيكِ الْكُوفَةِ
وَلَمَزَاتُ الْمَلَائِكَةِ مُبَشِّرَةٌ

المشرف العام
السيد موسى تقي الخليلي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

دور الكوفة في علم القراءات

ومدرسة عبد الله بن مسعود (*)

الأستاذ الدكتور أحمد نصيف الجنابي

لقد شاء الله أن تُبنى الكوفة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب، لتكون مدينة القراءة والإقراء، وأن يرسل «عمر» إلى الكوفة الصحابي الجليل ابن مسعود (ت، ٣٢هـ) ... ليكون له شأن فيها.. وقد أدرك «عمر» كفاية هذا الرجل فقال في رسالته إلى أهل الكوفة: (لقد آثرتكم به على نفسي)^(١).

ولا نعلم دلالة هذا النص حتى نعرف أن «ابن مسعود» كان حافظاً لكتاب الله، عارفاً أحكامه، وكان إلى جانب ذلك، حسن الصوت، حتى شهد له الرسول الأعظم (ﷺ) فقال: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يقرأ القرآنَ غَضاً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أمِّ عبد)^(٢).

وروى «مسلم» في «صحيحه» عن أبي مسعود أنه قال: (والله لا أعلم أحداً تركه رسول الله (ﷺ)، أعلم بكتاب الله من هذا، وأشار إلى ابن مسعود)^(٣).

وقد وصفه أستاذ القراءات -في عصره- ابنُ الجزريّ -فقال، في وصفه: (هو الإمام في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله، مع حسن الصوت)^(٤).

وظل يُقرئ في خلافة عمر بن الخطاب (من سنة ١٣- ٢٣هـ)، وخلال تسع سنين من خلافة عثمان، وتوفي سنة ٣٢هـ والأثر الكبير الذي تركه «ابن مسعود» يتجلى في ميدان «الإقراء»، وهو يُعدّ بحق -رائد أول مدرسة للإقراء في عالَمنا الإسلامي، وهو أول أستاذ في هذه المدرسة. وقام (بعده) بهذه المهمة تلاميذه الذين أخذوا عنه القراءة. وقد استطاعت -بحمد الله- أن أحصي عددهم -بعد جولة في ربوع المصادر- فكانوا ثلاثة عشر.

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب. لابن عبد البر ٩٨٨/٣.

(٢) رواه ابن ماجة والإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه (ينظر تخريجه في: معرفة القراء الكبار. للذهبي ١٣٤/١ - (هامش ٢).

(٣) انظر: صحيح مسلم من مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده، بمصر، سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، (الحديث ٢٤٦١).

(٤) غاية النهاية في طبقات القراء. لابن الجزري محمد بن محمد، تحقيق:

برجستراسر/ نشر مكتبة الخانجي، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م، ٤٥٩/١.

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل:

أسس الخليفة: عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ)، مدينة الكوفة (سنة ١٧هـ). وأرسل إليهم مرشداً ومعلماً، عبد الله بن مسعود (المتوفى سنة ٣٢هـ)، وأرسل إلى أهل الكوفة رسالة يقول فيها: (لقد آثرتكم به على نفسي).

لقد أقام (ابن مسعود) (رضي الله عنه)، صرح مدرسة علمية قرآنية-فقهية، والتفت حوله كوكبة من نابهي أهل الكوفة، سيجد القارئ تفاصيلها في القسم الأول من البحث.

ويعد البحث إشادة بجهود الأستاذ الأول لأول جامعة في الكوفة: الحافظ المفسر الفقيه: عبد الله بن مسعود...

وجاء البحث في ثلاثة أقسام وخاتمة:

الأول: مدرسة ابن مسعود، وملامحها الفكرية.

والثاني: دور الكوفة في فنّ القراءات.

والثالث: إسهام الكوفة في حركة التأليف، في علم القراءات.

والفرق بين فنّ القراءات وعلمها، أن الأول يؤخذ شفاهاً، ويُعطى أداء. والآخر: تنظيري، يضع القواعد والأصول، واللمسات الدقيقة.

والله أسأل أن يوفقني إلى العمل، من أجل لغة القرآن العظيم وعلومه.

والحمد لله على نعمه السابغات وهو حسبي ونعم الوكيل.

❖ القسم الأول ❖

مدرسة ابن مسعود وملامحها الفكرية

كانت السنة السابعة عشرة للهجرة بداية عهد علمي جديد، ليس في الكوفة وحدها، وإنما في العراق كله، ثم في العالمين العربي والإسلامي.

(*) عن: مجلة المورد البغدادية مج ٢٧ ع ٤ لسنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ص ٥١-٦١.

ويمكن تقسيمهم ثلاث مجموعات

المجموعة الأولى: الذين تفرغوا للقراءة. وسميتهم: (المقرئين).

المجموعة الثانية: الذين اقرأوا وافتوا، وسميتهم: (القراء الفقهاء)

المجموعة الثالثة: الذين اقرأوا ورووا الحديث، وسميتهم: (القراء المحدثين).

❖ المجموعة الأولى: المقرئون ❖

وهؤلاء جعلوا القراءة وكدهم وهمهم، ولم يُشغلوا بغيرها، وهم خمسة أعلام:

(أولهم): الأسود بن يزيد بن قيس النخعي (المتوفى ٧٥هـ).

وقد وصفه الذهبي: بأنه «الغمام القدوة»^(١). وهو أخو عبد الرحمن بن يزيد، ووالد عبد الرحمن بن الأسود، وابن أخي علقمة ابن قيس، وخال إبراهيم النخعي.

ويعدون من رؤوس العلم والعمل^(٢)، فهم أهل بيت كريم. أخذ الأسود القراءة (عَرَضاً)^(٣)، عن ابن مسعود. أما الذين قرؤوا عليه من أهل الكوفة فهم: إبراهيم بن يزيد النخعي، أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي، ويحيى بن وثاب^(٤).

وصف تلميذه وابن أخته إبراهيم النخعي، قراءته، فقال: «كان الأسود يختم القرآن في كل ست ليالٍ، وفي رمضان في كل ليلتين»^(٥).

وهذا ليس بعيداً عما جعل الله القرآن ربيع قلوبهم ونور أبصارهم وشفاء صدورهم!

وإذا كان الجزاء من جنس العمل، فإن الله تعالى رزق أمثال الأسود النخعي، حسن الذكر في الدنيا «وهذا مما يعجل الله به الثواب» فصار من مشاهير علماء الكوفة ومن ثقافتهم^(٦).

(ثانيهم): الربيع بن خثيم بن عائذ، أبو يزيد الكوفي الثوري، (المتوفى سنة ٦٢هـ)

وقد وصفه «ابن حبان» في كتابه: «مشاهير علماء

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت من ١٤٠١ - ١٩٨٥م، ٥٠ / ٤.

(٢) المرجع ٥٠ / ٤ ومعرفة القراء الكبار للذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، شعيب الارناؤوط وصالح مهدي عباس/ نشر مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ٥٠ / ١.

(٣) معرفة القراء الكبار ٥٠ / ١ وغاية النهاية ١ / ١٧١.

(٤) المرجعان السابقان وسير أعلام النبلاء ٥١ / ٤.

(٥) معرفة القراء الكبار ٥٠ / ١.

(٦) مشاهير علماء الأمصار، لابن حبان/ ص ١٠٠ محمد بن حبان بن أحمد التميمي، تحقيق. م فلاشهمر، (ط القاهرة ١٩٥٩م) ص ١٠٠.

الأمصار» بقوله: (كان من عبّاد أهل الكوفة وزهادهم والمواظبين على الورع الخفي، والعبادة الدائمة إلى أن مات)^(٧). ووصفه «الذهبي» في: «سير أعلام النبلاء» فقال عنه: أنه «الإمام القدوة العابد، أحد الأعلام. وكان قليل الرواية كبير الشأن».

أخذ القراءة عن ابن مسعود^(٨).

وقد أعجب به استاذُه «وكان الربيع إذا دخل على ابن مسعود لم يكن إذن لأحد حتى يفرغ كل واحد من صاحبه»^(٩). فأبى منزلة فوق هذه المنزلة!

ولذلك قال له مرة: (١٠) يا أبا يزيد لو رآك رسول الله (ﷺ)، لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبئين^(١١) (بكسر الباء).

وقد روى عن الشعبي: عامر بن شراحيل (وكان من الفقهاء في الدين وجلة التابعين): فقال: «حدثنا الربيع وكان من معادن الصدق»^(١٢)... فماذا يقول القائلون، بعد هذا القول؟! وقد أجمع الناس على أنه وليّ من الأولياء^(١٣).

وثالثهم: زرّ بن حبّيش بن حُباشة، الأسدي الكوفي، (المتوفى سنة ٨٢هـ)

وهو الإمام القدوة مقرئ الكوفة في زمانه مع أبي عبد الرحمن السلمي^(١٤). عرض القراءة على عثمان وعلي وابن مسعود، (رضي الله عنه)^(١٥).

وعرض عليه القراءة: عاصم بن أبي النجود، وسليمان بن مهران الأعمش، وأبو إسحاق السبيعي ويحيى بن وثاب^(١٦).

وهؤلاء الخمسة صاروا من قراء الكوفة المشهورين، وسلامة البناء من إتقان الباني وحسن تخطيطه...

وكان متقناً للقراءة مجوداً فيها، حتى وصف قراءته تلميذه «عاصم بن أبي النجود» فقال: «ما رأيت أقرأ من زرّ»^(١٧).

ولزرّ تأثير كبير في قراءة عاصم بن أبي النجود، حتى أن رواية أبي بكر شعبة بن عياش عن عاصم هي القراءة التي عرضها عاصم على زرّ بن حبّيش عن ابن مسعود^(١٨).

(٧) المرجع نفسه / ٩٩ - ١٠٠.

(٨) غاية النهاية ١ / ٢٨٣.

(٩) سير أعلام النبلاء ٤ / ٢٥٨.

(١٠) المرجع نفسه ٤ / ٢٥٨ وغاية النهاية ١ / ٢٨٣.

(١١) هم المتواضعون الخاشعون لله.

(١٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٢٥٨.

(١٣) حلية الأولياء. لأبي نعيم الأصفهاني ٢ / ١٠٧.

(١٤) سير أعلام النبلاء ٤ / ١٦٦ - ١٦٧.

(١٥) غاية النهاية ١ / ٢٩٤ (رقم ١٢٩٠).

(١٦) سير أعلام النبلاء ٤ / ١٦٧ وغاية النهاية ١ / ٢٩٤.

(١٧) غاية النهاية ١ / ٢٩٤.

(١٨) معرفة القراء الكبار ١ / ٩٢.

والعرض: أن يقرأ التلميذ على أستاذه من المصحف أو من حفظه.

وظل يقرئ في مسجد الكوفة الأعظم (الذي أقرأ فيه أستاذه ابن مسعود)، أربعين سنة^(١٠)، إلى أن توفي (سنة ٧٤هـ).

❖ المجموعة الثانية: القراء المحدثون ❖

وقد أحصيت من أصحابه ثلاثة يمكن أن يوصفوا بهذه الصفة، وهم:

(١) عمرو بن شرحبيل، أبو ميسرة الهمداني الكوفي، (المتوفى قبل سنة ٧٨هـ) تابعي جليل صالح عابد. وقد وصفه الذهبي بأنه «من العباد الأولياء»^(١١). أخذ القراءة عرضاً عن ابن مسعود^(١٢).

وروى الحديث عن الخيفتين الراشدين عمر وعلي. وروى عنه: أبو وائل شقيق بن سلمة، وعامر الشعبي، والقاسم ابن مُحَيَّرَة، وأبو إسحاق السبيعي^(٣٤).

(٢) عمرو بن ميمون الأودي الكوفي، المتوفى سنة ٧٤هـ (أو ٧٥هـ).

وهو تابعي ثقة من ثقات أهل الكوفة في زمانه^(١٣) أخذ القراءة (عرضاً) عن ابن مسعود.

وروى القراءة عنه: أبو إسحاق السبيعي^(١٤). وروى الحديث عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي ذر وسعد بن أبي وقاص.

وروى عنه الحديث: سعيد بن جبير، والربيع بن خثيم وأبو إسحق السبيعي، وعامر الشعبي^(١٥).

وثقة يحيى بن معين أمام الجرح والتعديل في عصره. ووثقه أيضاً العجلي والنسائي^(١٦).

ووصفه الذهبي بأنه «الإمام الحجة»^(١٧).

(٣) أبو وائل: شقيق بن سلمة الاسدي: أسد خزيمية. الإمام الكبير شيخ الكوفة، المتوفى سنة ٨٢هـ (أو ٨٣هـ) أخذ القراءة عرضاً عن ابن مسعود^(١٨).

(١٠) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٦٧ وغاية النهاية ١/ ٤١٣.

(١١) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٣٥.

(١٢) المرجع نفسه ١٣٥ وغاية النهاية ١/ ٦٠٢.

(١٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٥٨ وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (طبعة

حيد آباد) الدكن ١٣٢٥هـ ٨/ ١٠٩ - ١١٠.

(١٤) غايه النهاية ١/ ٦٠٣.

(١٥) تهذيب التهذيب ٨/ ١٠٩، ١١٠.

(١٦) المرجع نفسه ٨/ ١١٠.

(١٧) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٥٨.

(١٨) غايه النهاية ١/ ٣٢٨.

ورابعهم: عُبيد بن نضلة، أبو معاوية الخزاعي الكوفي، (المتوفى سنة ٧٥هـ).

وهو من التابعين الثقات.

أخذ القراءة عرضاً عن ابن مسعود.

وروى عنه القراءة: حمران بن أُعَيْنَ ويحيى بن وثاب وكان مقرئاً مجوداً وله منهجه الخاص في الإقراء إذ كان يقرئ في الليلة آية واحدة^(١).

وأحب المقرئ المعروف «عاصم» أن يطبق هذا المنهج مع تلميذه أبي بكر بن عياش، فقال لتلميذه: لا تقرأ عليّ كما قرأ يحيى بن وثاب على عبيد بن نضلة، في كل يوم آية^(٢)؟ وقد وثقه ابن حبان^(٣).

وخرج له مسلم في صحيحه^(٤).

وخامسهم: عبد الله بن حبيب بن ربيعة المشهور بكنته ونسبته فهو «أبو عبد الرحمن السلمي».

ولد في حياة النبي (ﷺ)، ولأبيه صُحْبَةً. وهو مقرئ الكوفة بعد أستاذه ابن مسعود - الإمام العالم. فقد قرأ القرآن الكريم وجوده وبرع في حفظه^(٥).

قال أبو عمرو الداني: (أخذ القراءة عرضاً عن: عثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب)^(٦)، (رضي الله عنهم).

وانتهت إليه القراءة في الكوفة تجويداً وضبطاً^(٧).

وقال المقرئ البغدادي أبو بكر بن مجاهد: (أول من أقرأ الناس بالكوفة، بالقراءة المجمع عليها، أبو عبد الرحمن السلمي)^(٨). ويريد «بالقراءة المجمع عليها» قراءة المصحف الإمام الذي أرسله الخليفة عثمان بن عفان إلى الكوفة وبقية الأمصار: مكة والمدينة والبصرة والشام. وقد أخذ عنه القراءة (عرضاً)^(٩):

الحسن والحسين (عليهما السلام) وعاصم بن أبي النجود.

وأبو إسحاق السبيعي: (عمرو بن عبد الله) وعامر الشعبي.

وعبد الله بن عيسى بن أبي ليلى ومحمد بن أبي أيوب

وأبو عون محمد بن عبيد الله الثقفي. ويحيى بن وثاب.

(١) غايه النهاية ١/ ٤٩٨.

(٢) المرجع نفسه ٤٩٨.

(٣) المرجع نفسه ٤٩٨.

(٤) المرجع نفسه ٤٩٨.

(٥) معرفة القراء الكبار ١/ ٥٢ وسير أعلام النبلاء ٤/ ٢٦٧.

(٦) معرفة القراء الكبار ١/ ٥٣.

(٧) غايه النهاية ١/ ٤١٣.

(٨) كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد، تحقيق د. شوقي ضيف، ط: دار

المعارف الثانية بمصر، ١٩٨٠، ص ٦٧.

(٩) معرفة القراء الكبار ١/ ٥٣ وغايه النهاية ١/ ٤١٣.

أسلم عبيدة عام الفتح ولم ير النبي (ﷺ) (١٠).

أخذ القراءة عرضاً عن ابن مسعود.

وأخذها عنه عرضاً: إبراهيم النخعي وأبو إسحاق السبيعي (١١).

وكان عبيدة أحد أصحاب عبد الله الذين يقرئون ويفتون (١٢).

(٤) علقمة بن قيس بن عبد الله النخعي، المتوفى سنة ٦٢هـ ولد في حياة النبي (ﷺ). وليس له صحبة (١٣). وقال الذهبي: (ولد في أيام الرسالة المحمدية، وعداؤه في المخضرمين، وهاجر في طلب العلم والجهاد. ونزل الكوفة ولازم ابن مسعود حتى رأس في العلم والعمل، وتفق به العلماء، وبعد صيته) (١٤). وقد قرأ القرآن على أستاذه في سنتين.

وعرض عليه القرآن من أهل الكوفة: إبراهيم بن يزيد النخعي، وعبيد بن نضلة، وأبو إسحاق السبيعي، ويحيى بن وثاب (١٥).

وقد رزق حسن الصوت، حتى أجمع من ترجم له على أنه من أحسن الناس صوتاً بالقرآن. وهو القائل: (كنت رجلاً قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، وكان ابن مسعود يستقرئني ويقول لي: فذاك أبي وأمي، فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: أن حسن الصوت يزين القرآن).

وكان إذا سمعه ابن مسعود يقول: لورآك رسول الله (ﷺ) لسرّبك (١٦).

وهو صاحب سر أستاذه. وقد قال الشعبي: (وهو يوازن بين تلاميذ ابن مسعود): (كان علقمة ابطن القوم به، وكان مسروق قد خلط منه ومن غيره، وكان الربيع بن خثيم أشد القوم اجتهاداً، وكان عبيدة يوازي شريحاً في العلم والقضاء) (١٧).

ولكن.. ما أبعد مرمى «شريح» في القضاء، إذ كان معروفاً به، فقالوا: «شريح القاضي»...

فقول الشعبي ذو دلالة قوية على رسوخ قدم «عبيدة» في القضاء...

وهذا يحيى بن معين: أستاذ علم الجرح والتعديل يقول: (لم يكن أحد من الصحابة له أصحاب حفظوا عنه وقاموا بقوله

وحدث عن: عمر وعثمان وعلي وعمار ومعاذ وابن مسعود وأبي الدرداء، وأبي موسى الأشعري، وحذيفة بن اليمان، وعائشة وخبّاب بن الأرت وأسامة بن زيد والأشعث بن قيس، وخلق سواهم (١٨).

ويرى عمرو بن مرة أن أبا وائل أعلم أهل الكوفة بما يُروى عن ابن مسعود من أحاديث (١٩).

وقد جعله «ابن حبان» أول مشاهير التابعين في الكوفة (٢٠). ويؤيد هذا المنحى. المقرئ الكوفي سليمان بن مهران الأعمش، وكذلك إبراهيم النخعي الكوفي، فيقول مغرياً الأعمش بالأخذ عن «شقيق». (عليك بشقيق فإني أدركت الناس وهم متوافرون وأنهم ليعدونه من خيارهم).

❖ المجموعة الثالثة: القراء الفقهاء ❖

والذين يتصفون بهذه الصفات من أصحاب ابن مسعود خمسة:

(١) الحارث بن عبد الله. الملقب بالأعور، الهمداني الكوفي، (المتوفى سنة ٦٥هـ)

قرأ على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب وابن مسعود، وقرأ عليه أبو إسحاق السبيعي: عمرو بن عبد الله (٢١).

وقد وصفه «الذهبي» بقوله: (هو العلامة الإمام أبو زهير صاحب علي وابن مسعود. كان فقيهاً كثير العلم، على لين في حديثه) (٢٢). واللين في الحديث: الضعف. أي أن علماء الحديث ضَعَفُوهُ. وهذه الصفة تتكرر في كتب الرجال وكتب الجرح والتعديل (٢٣).

(٢) الحارث بن قيس الكوفي العابد كان من قدماء تلاميذ ابن مسعود، إذ قتل وهو يقاتل مع الإمام علي كرم الله وجهه (٢٤). وقد اجمع الذين ترجموا له على أنه من خيار الكوفيين وعبادهم (٢٥).

وروى القراءة عن ابن مسعود (٢٦).

(٣) عبيدة بن عمرو السلماني، (المتوفى سنة ٧٢هـ) كان من كبار التابعين في الكوفة، ومن الأعلام الفقهاء.

(١) الجرح والتعديل. لابن أبي حاتم الرازي (طبعة حيد آباد) الدكن ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م، ق ١ ص ٣٧١ وتهذيب التهذيب ٤ / ٣٦١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ١٦١.

(٣) مشاهير علماء الأمصار / ٩٩.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤ / ١٥٢ وغاية النهاية ١ / ٢٠١.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤ / ١٥٢.

(٦) ينظر في سبيل المثال: الجرح والتعديل، وميزان الاعتدال.

(٧) سير أعلام النبلاء ٤ / ٧٥، ٧٦.

(٨) مشاهير علماء الأمصار / ١٠٨ وسير أعلام النبلاء ٤ / ٧٥ وغيرهم.

(٩) غاية النهاية ١ / ٢٠١.

(١٠) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٠، ٤١.

(١١) غاية النهاية ١ / ٤٩٨.

(١٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤١.

(١٣) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٤ ومعرفة القراء الكبار ١ / ٥١.

(١٤) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٣ وما بعدها.

(١٥) غاية النهاية ١ / ٥١٦.

(١٦) المرجع نفسه / ٥١٦.

(١٧) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٣.

الحركة القرآنية في الكوفة، وهم الأرض الطيبة التي أنبتت نباتاً حسناً أو نشأت عنها حركة قوية للاقراء استمرت أمداً طويلاً، وبقيت فروعها المباركة إلى اليوم.

وعلى أيدي هؤلاء القراء-أو على يد تلامذتهم- قرأ من أراد القراءة من أهل الكوفة، فنشأ عنهم القراء المشهورون والأئمة الذين يقرأ الناس برواياتهم وقراءاتهم، ومنهم برز ثلاثة من القراء السبعة. وبذلك تكون مدرسة «ابن مسعود» الاقرائية أول مدرسة للاقراء في الكوفة، وهي كذلك أول مدرسة للاقراء في العالم الإسلامي

فالكوفة صاحبة الريادة في هذا الميدان... والجامعة بمعناها العلمي ومفهومها الثقافي قد وجدت، لأول مرة، في هذه الأرض المباركة، وكانت أول شجرة مباركة نبتت في أرض الإسلام، غذّاه القرآن، وحمل لواءها المؤمنون به، العالمون بكتاب ربهم، المتجددون للعلم، الواهبون له وقتهم، من أجل مرضاة الله ورسوله، لا يبغيون جاهاً ولا منصباً، ولا مالاً، يواصلون الليل بالنهار...

كل واحد منهم «كالنخلة» الشجرة الطيبة: أصلها ثابت وفرعها في السماء، وكل ما فيها منفعة للناس... فما أجّلهم وما أسعدهم!!

❖ القسم الثاني ❖

دور الكوفة في فن القراءات

لقد بدأ تاريخ القراءات بقراءة أول سورة من القرآن الكريم على لسان رسول رب العالمين: «﴿قُرْأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾».

ومرت القراءات-بعد ذلك- بمراحل هي:

المرحلة الأولى: مرحلة عصر الحديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف».

المرحلة الثانية: مرحلة المصحف الإمام.

المرحلة الثالثة: مرحلة التأليف في القراءات.

المرحلة الرابعة: مرحلة كتاب السبعة...

-١-

ففي المرحلة الأولى كان الصحابة يأخذون عن رسول الله ﷺ، كل ما يتصل بحياتهم صغيراً كان أو كبيراً.

وقد ثبت في الحديث الذي روي من طرق متعددة، أنهم كانوا يرجعون إليه فيأخذون عنه القراءة فإذا سمعوا ما يخالف ما أخذوه عنه، رجعوا إليه يسألونه فيخبرهم أنه أقرأ هذه القراءات قائلاً: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»^(١١).

(١١) ينظر الحديث في صحيح البخاري مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بمصر ١١٣٧٧هـ/٦/١٠٠ وصحيح مسلم ٢/٢٠٢ وسنن أبي داود مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٧١هـ/٢/١٠١.

في الفقه إلا ثلاثة: زيد بن ثابت وابن مسعود وابن عباس. وأعلم الناس بابن مسعود: علقمة والأسود وعبيدة والحارث^(١). (٥) مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية، الهمداني الكوفي (المتوفى سنة ٦٣هـ)

والأجدع لقب أبيه وأسمه «عبد الرحمن»^(٢).

أخذ القراءة عرضاً عن ابن مسعود.

وروى القراءة عنه عرضاً يحيى بن وثاب^(٣).

ويُعدُّ أحد الرجال الأفاضل الذين يصدر الناس عن رأيهم، حتى قال إبراهيم النخعي: (كان أصحاب ابن مسعود الذين يُقرئون الناس القرآن ويعلمونهم السنة، ويصدر الناس عن رأيهم ستة: علقمة والأسود ومسروق وعبيدة وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل والحارث بن قيس)^(٤).

ومجمل هذا القول ورد^(٥) عن محمد بن سيرين (ت ١١٠هـ) وعامر^(٦) الشعبي (ت ١٠٥هـ).

وقد قال فيه الإمام أحمد بن حنبل: (بقي مسروق بعد علقمة لا يفضل عليه أحد)^(٧).

وقد وثّقه العجلي وقال فيه (كان أحد أصحاب عبد الله الذين يقرؤون ويفتون)^(٨).

وقال يحيى بن معين: (مسروق ثقة لا يُسال عن مثله)^(٩).

وقد وصفه الإمام الذهبي بقوله: (الإمام القدوة العلم)^(١٠).

والذهبي من الرجال الذين يعرفون ما يقولون ويفقهون ما يكتبون، فوصفه مسروقاً بهذه الصفات له معناه الدقيق، وماذا بعد العلم الرباني الصادق من جزاء في الدنيا إلا أن يكون المرء اماماً قدوة... وهذا دعاء المؤمنين ربهم: (واجعلنا للمتقين إماماً).

وهكذا يتضح أثر الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود (ت ٣٢هـ)، في إيجاد هذه الحركة النشطة للاقراء في الكوفة، وفي ترسيخ هذه «المدرسة الاقرائية» التي أنجبت هذه المجموعة الطيبة من القراء ومن أعيان رجال العلم والفقه، الذين يعدون من أساتذة هذه المدرسة الأولى وتلامذتها!!! وكوكبة القراء من أصحاب ابن مسعود تعد أساس

(١) غاية النهاية / ٥١٦.

(٢) مشاهير علماء الأمصار / ١٠١.

(٣) غاية النهاية ٢ / ٢٩٤.

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: أحمد بن علي (مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩هـ/ ١٣٣١م) ١٣ / ٢٣٣ وسير أعلام النبلاء ٤ / ٥٦ (وربما نقل منه).

(٥) سير أعلام النبلاء ٤ / ١٥٣.

(٦) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٦.

(٧) تاريخ بغداد ١٣ / ١٣٤ وتهذيب التهذيب ١٠ / ١١٠.

(٨) تهذيب التهذيب ١٠ / ١١١.

(٩) الجرح والتعديل م ٤ / ١ ص ٣٩٧.

(١٠) سير أعلام النبلاء ٤ / ٦٣.

وهذا الحديث ثبت من طرق متعددة جمع أكثرها المقرئ أحمد بن أبي عمر المعروف بالاندرابي (المتوفى سنة ٤٧٠هـ)، في رسالة عنوانها: «ما جاء في نزول القرآن على سبعة أحرف».

ولا أريد أن أطيل في ذكر الآراء التي قبلت بشأن معنى الأحرف السبعة الواردة في الحديث. فقد أوردتها في الدراسة التي قدمتها لتحقيق رسالة «الاندرابي» السالفة، (وستنشر بإذن الله).

غير أنني أرى أن المقصود بالأحرف السبعة ليس العدد المحدد بل الكثرة، وهي ما يراد بالسبعة (أحياناً) وبالسبعين، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (سورة التوبة، الآية ٨٠).

والحكمة من هذا التعدد هي التيسير. فقد روى «مسلم» في صحيحه عن ابن عباس (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: اقرأني جبريل على حرف واحد فراجعته فلم أزل استزيده حتى انتهت إلى سبعة أحرف^(١).

وقد يسمع النبي الكريم صحابياً يقرأ فيقره فتصبح هذه القراءة سنة متبعة.

والثابت عند علماء القراءات أن (لم تحفظ عن النبي (ﷺ)) قراءة مجردة على وجه واحد من أول القرآن إلى آخره، لأنه كان يقرئ أو يقرأ بالوجه كلها، مرة على ذا الوجه، ومرة على (ذلك)^(٢). أي: أنه لم يلزم الأمة قراءة مخصوصة من فاتحة القرآن إلى خاتمتها، تيسيراً وتوسعة.

وظل هذا المبدأ معمولاً به حتى خلافة عثمان بن عفان، (من سنة ٢٢-٣٥هـ)

ومن المعروف أن الصحابة تفرقوا، منذ عهد عمر بن الخطاب (من ١٣-٢٣هـ)، في الأمصار، وتوزعوا في طريق الدعوة إلى الإسلام في بقاع الأرض، وأخذ كل فريق منهم يقرأ بقراءة أحد الصحابة المعروفين بالحفظ والإتقان.

إن الذي حدث هو أن كل جماعة تعصبت لقراءة الصحابي الذي قرأت عليه، فلما انتهى ذلك الاختلاف إلى أن أنكر كل فريق على الآخر قراءته واشتد الخصام، وقال كل فريق:

«قراءتنا أولى من قراءتكم»، راع ذلك الصحابي الجليل «حذيفة بن اليمان» فقدم من «أرمينية» على الخليفة «عثمان بن عفان» فقال له: أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتاب الله^(٣).

(١) صحيح مسلم ٢/ ٢٠٢.

(٢) الإيضاح في القراءات (للاندرابي) أحمد بن أبي عمر، (مخطوط مصور)، الورقة ٧٧: ب.

(٣) الإبانة عن معاني القراءات. لمكي بن أبي طالب القيسي، بتحقيق: د. عبد الفتاح شلبي، (ط. القاهرة ١٩٦٠م) ص ٢٨.

فدعا زيد بن ثابت وانتدب معه لجنة، وأمرهم بنسخ المصحف على «حرف واحد»، وسمى مصحفه «المصحف الإمام»، ثم أمر بنسخ خمس نسخ ثم وزعها على خمسة أمصار هي: مكة والمدينة والكوفة والبصرة ودمشق.

فما أحسن ما فعله وما أجله!!

وقد لاحظ (الطبري) ذلك وهو يتحدث عن «المصحف الإمام» فقال: (إن إمام المسلمين وأمير المؤمنين عثمان بن عفان، جمع المسلمين، نظراً منه لهم، وإشفافاً منه عليهم، ورأفةً منه بهم، حذر الردّة بمحضره - من بعضهم بعد الإسلام، والدخول في الكفر بعد الإيمان، إذ ظهر من بعضهم بمحضره وفي عصره التكذيب ببعض الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، مع سماع أصحاب رسول الله (ﷺ)، النهي عن التكذيب بشيء منها، فحملهم، إذ رأى ذلك ظاهراً بينهم في عصره، وبحدائث عهدهم بنزول القرآن، وفراق رسول الله (ﷺ) إياهم، بما آمن عليهم معه عظيم البلاء في الدين، من تلاوة القرآن على حرف واحد، وجمعهم على مصحف واحد، وحرف واحد. وعزم على كل من كان عنده مصحف مخالف المصحف الذي جمعهم عليه، أن يحرقه. فاستوثقت له الأمة بالطاعة، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية، فتركت القراءة بالأحرف التي عزم عليها إمامها العادل، في تركها، طاعة منها له، ونظراً منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر ملتها)^(٤).

فسقط العمل بما يخالف خط «المصحف الإمام» بالإجماع، وصارت القراءة - عند جميع العلماء - بما يخالفه بدعة وخطأ، وإن صحت ورويت^(٥) متصلة ثابتة.

-٢-

وهكذا بدأت مرحلة المصحف الإمام...

غير أن الرسم المصحفي يحتمل (أحياناً) أكثر من قراءة. كقراءة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ من سورة الفاتحة، فقد قرئت (ملك يوم الدين)، و«مالك»^(٦)، لأنها مرسومة من غير ألف هكذا: «ملك».

فضلاً عن ذلك ما جاء من القراءات المتواترة الموافقة للمصحف الإمام، كقراءة: ﴿جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ في سورة الهُمزة بتشديد ميم «جَمَعَ» وتخفيفها^(٧).

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، نشر: مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م ١/ ٢٨.

(٥) الإبانة عن معاني القراءات ٣/ ٤.

(٦) التبصرة في القراءات (لمكي بن أبي طالب) منشورات معهد المخطوطات العربية، بالكويت، ١٤٥٠هـ / ١٩٨٥م بتحقيق د. محيي الدين رمضان، ٥٤.

(٧) التبصرة في القراءات ٣٨٩ والإبانة ٧٦.

(ت ٧٤٨هـ)، في كتابه «معرفة القراء الكبار»^(٦)، إذ ظهر ابن مقسم: محمد بن الحسن بن يعقوب (٢٦٥-٣٥٤هـ)، فزعم أن «كل قراءة توافق المصحف فالقراءة بها جائزة». فتصدى له المقرئ البغدادي: عبد الواحد بن عمر بن أبي هاشم (ت ٣٤٩هـ): فرد عليه قائلاً: (وقد نبغ في عصرنا هذا نابغ فزعم أن كل من صح عنده وجه في العربية، لحرف من القرآن، يوافق خط المصحف فقراءته به جائزة، في الصلاة وفي غيرها، فابتدع لذلك بدعة ضل بها عن قصد السبيل، واورط نفسه في مزلة عظمت بها جنائته على الإسلام وأهله، وحاول إلحاق كتاب الله من الباطل، ما لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه، إذ جعل لأهل الإلحاد في دين الله، عز وجل - بسوء رأيه طوقاً إلى مغالطة أهل الحق بتخريف القراءات من جهة البحث والاستخراج بالاراء، دون الإعتصام والتمسك بالأثر المفترض على أهل الإسلام قبوله والأخذ به كابراً عن كابر، وخالفاً عن سالف)^(٧).

والمسألة أقدم من «ابن مقسم» بكثير، إذ ترجع إلى بداية القرن الثاني الهجري، حيث شعر المؤمنون الصادقون بهذا الخطر الذي ينشأ من القراءة بالأهواء من دون الاعتماد على الأثر والنقل الثابت، فنشأت مرحلة اختيار القراءات الصحيحة في النقل الثابتة في الأثر، (وهذا ما سيظهر في القسم الثالث).

وقد قال الإمام «القسطلاني» في كتابه: «لطائف الاشارات»: (لما كثر الاختلاف فيما يحتمله الرسم وقرأ أهل البدع والأهواء - بما لا يحل لأحد تلاوته - وفاقاً لبدعتهم، رأى المسلمون أن يجمعوا على قراءة أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشان القرآن العظيم فاختراروا من كل مصر وجّة إليه مصحف، أئمة مشهورين بالثقة والأمانة في النقل، وحسن الدراية، وكمال العلم وأقنوا عمرهم في القراءة والإقراء، وأجمع أهل مصرهم على عدالتهم، فيما نقلوا، والثقة بهم فيما قرأوا، ولم تخرج قراءتهم عن خط مصحفهم)^(٨).

-٣-

وهكذا نشأت المرحلة الثالثة وكان رواد هذه المرحلة قراء الكوفة، فكان أول من كان له «اختيار في القراءة» هو المقرئ: طلحة بن مصرف بن عمرو الهمداني الكوفي (ت ١١٢هـ)، الذي كانوا يسمونه (سيد القراء)^(٩).

(٦) معرفة القراء الكبار ١/ ٣٠٨.

(٧) المرشد الوجيز/ ١٨٦ ومعرفة القراء الكبار ١/ ٣٠٨.

(٨) لطائف الإشارات لفنون القراءات، للإمام الحافظ شهاب الدين القسطلاني، تحقيق: الشيخ عامر عثمان ود. عبد الصبور شاهين، (نشر المجلس الأعلى الإسلامي، بالقاهرة ١٣٨٩هـ - ١/ ٦٦.

(٩) غاية النهاية ١/ ٣٤٣.

وقد أدت الاحتمالات في القراءة والرسم إلى أن يقرأ بعض الذين يحبون الاختلاف، بكل وجه محتمل. وهذا أمر خطير وياب يؤدي إلى عواقب وخيمة... إذ لا بد من أن نحذر من الظن الذي يذهب إلى جواز القراءة بأي وجه من غير رواية ثابتة، لأن علماء القراءات رفضوا أية قراءة لا تثبت بالرواية الصحيحة عن صحابي قرأ على النبي (ﷺ). ولذلك قال المقرئ المشهور أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ): (وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والاقيس في العربية، بل على الإثبات في الأثر والأصح في النقل)^(١).

ولذلك رفضت قراءة عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩هـ)، في «اختياره». قال أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ): (كان من قراء البصرة عيسى بن عمر الثقفي وكان عالماً بالنحو غير أنه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية، يفارق قراءة العامة، واستنكره الناس)^(٢).

لذلك أرى أن الشرط الذي وضعه علماء القراءات في شروط تصحيح القراءة، في القرن الخامس وما بعده، وهو موافقة القراءة للعربية، ولو بوجه، شرط متأخر لا اعتقد بصحته، وحجتي في ذلك ما قاله الأزهري (ت ٣٧١هـ) في كتابه: (القراءات وعلل النحويين فيها)، إذ جاء قوله: (من قرأ بحرف)^(٣) لا يخالف المصحف بزيادة أو نقصان، أو تقديم مؤخر، أو تأخير مقدم، وقد قرأ به إمام من أئمة القراء المشتهرين في الأمصار، فقد قرأ بحرف من الحروف السبعة التي نزل القرآن بها). وختمه بقوله: (وهذا مذهب أهل العلم الذين هم القدوة ومذهب الراسخين في علم القرآن قديماً وحديثاً).

فيجب إذن - أن تكون تلك الأوجه المحتملة ثابتة من حيث الرواية مسندة إلى إمام من أئمة القراء، حتى لا يعتمد بعض ضعفاء الإيمان فيصحف أو يحرف بحجة موافقة المصحف الإمام... وهذا ما حدث كما أورد الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، في «تاريخ بغداد»^(٤) وأبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) في «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز»^(٥)، و«الذهبي»

(١) منجد المقرئين. لابن الجزري نشر مكتبة القدسي، بالقاهرة ١٣٥٠هـ/ ص ٦٥.

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء. لابن الجزري ١/ ٦١٣.

(٣) الحرف في اصطلاح القراء: هو ما اختلف فيه القراء كلم القرآن سواء أكان اسماً أم فعلاً أم حرفاً.

(٤) تاريخ بغداد ٢/ ٢٠٧.

(٥) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة المقدسي: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، طيار التي قولاج، (نشر: دار صادر بيروت ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ - ١٨٧.

الأمصار الخمسة قارئاً^(٤). ولا نعرف من هو قارئ الكوفة المختار لأن الكتاب مفقود. ولكنه لا بد من أن يكون منهم واحد... وفي القرن نفسه ألف إسماعيل بن إسحاق القاضي الأزدي البغدادي (ت ٢٨٢هـ) كتاباً في القراءات، جمع فيه قراءة عشرين إماماً. منهم القراء السبعة^(٥): عاصم وحمزة والكسائي وأبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن كثير ونافع بن أبي نعيم، وعبد الله بن عامر.

والثلاثة الأولون من قراء الكوفة.

وجاء بعده الإمام الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) فألف كتابه: «الجامع في القراءات»، وفيه قراءة ما يزيد على عشرين إماماً مقررّاً، منهم القراء السبعة^(٦)، وفيهم الثلاثة الكوفيون عاصم وحمزة والكسائي.

ولم يقتصر التأليف في القراءات المشهورة على هؤلاء العلماء بل ألف غيرهم، في القراءات كتباً، منهم: خلف بن هشام البزار (ت ٢٢٩هـ)، ومحمد بن سعدان (ت ٢٣١هـ)، وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، وثعلب، وغيرهم.

ثم جاء دور المقرئ البغدادي المشهور: أبو بكر بن مجاهد: أحمد بن العباس بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ)، فقد ألف كتابه: «السبعة في القراءات»، حوالي سنة ٣٠٠هـ وفيه ثلاثة قراء من الكوفة، وهم: عاصم بن أبي النجود (ت ١٢٧هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦هـ)، والكسائي (ت ١٨٩هـ).

وقد أعطيت كتاب السبعة أهمية خاصة لأن أثره في علم القراءات مثل أثر صحيح البخاري في الحديث، وأثر كتاب سيبويه في النحو.

ولا بد من التفريق -في هذا المقام- بين مفهوم الأحرف السبعة الواردة في الحديث، والقراءات السبع، لأن قسماً من المؤلفين في القراءات وقعوا في الوهم فخلطوا بين المفهومين. وهذا الخلط قديم. حتى قال الأستاذ المقرئ: إسماعيل بن إبراهيم بن محمد (المتوفى سنة ٤١٠هـ)، المعروف (بالقُرَاب) في كتابه (الشافعي في القراءات): (وينبغي ألا يتوهم متوهم في قوله (ﷺ): «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أنه منصرف إلى قراءة سبعة من القراء الذين ولدوا بعد التابعين، لأنه يؤدي إلى أن يكون الخبر متعرياً عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء الأئمة السبعة فتؤخذ عنهم القراءة، ويؤدي أيضاً إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة إن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا

ثم توالى كتب «الاختيارات» وفي القرن الثاني الهجري (أيضاً) بدأ التأليف بكتب أفرادها القراء لقراءاتهم، وأول من فعل ذلك حمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦هـ) بكتابه (قراءة حمزة)، وتوالى بعد ذلك التأليف في هذا النمط من القراءات، وسُمي فيما بعد بكتب «المفردات».

وفي هذا القرن ألف القراء وغيرهم ما يسمى بكتب «القراءات»، والريادة في هذا النمط للقراء وأول من فعل ذلك مقرئ الشام: عبد الله بن عامر (ت ١١٨هـ). وتوالى المؤلفات في هذا القرن من غير تحديد عدد القراء. ولكن لا بد من أن يحتوي المؤلف، على مقرئ واحد في الأقل من الكوفة.

أما في القرن الثالث فأول من ألف في ذلك الإمام المقرئ: أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) بكتابه: القراءات، فذكر فيه مجموعة من الصحابة والتابعين، واردفهم بقوله: (فهؤلاء الذين سمينا من الصحابة والتابعين، هم الذين يحكى عنهم عظم القراءة، وأن كان الغالب عليهم الفقه والحديث)، ثم قال: (ثم قال من بعدهم بالقرآن قوم ليست لهم أسنان من ذكرنا، ولا قدمهم، غير أنهم تجردوا للقراءة فاشتدت بها عنايتهم، ولها طلبهم، حتى صاروا بذلك أئمة يأخذها الناس عنهم، ويقتدون بهم فيها، وهم خمسة عشر رجلاً من هذه الأمصار^(١)، في كل مصر منهم ثلاثة رجال). وذكر من قراء الكوفة: الأعمش: سليمان بن مهران، وعاصم بن أبي النجود ويحيى بن وثاب. وأضاف قائلاً: (ثم تلاهم حمزة رابعاً... أما الكسائي فإنه كان يتخير (القراءات)^(٢)).

ومن كلام أبي عبيد الأخير نأخذ نتيجتين: الأولى: أن أبا عبيد قد ذكر خمسة قراء من الكوفة، في حين ذكر من غيرها ثلاثة. النتيجة الأخرى: أن هذا أول كتاب يُذكر فيه هذا العدد من قراء الكوفة.

وفي القرن الثالث (أيضاً) ألف اللغوي المشهور: أبو حاتم السجستاني البصري (ت ٢٥٥هـ) كتاب «القراءات». ولا ندري ما عدد القراء الكوفيين في الكتاب، ولكن لا بد من أن يكون قد ذكر بعضهم، لأن الكوفة هي مصر من الأمصار التي وجه إليها الخليفة عثمان بن عفان بمصحفه.

وقد وهم «ابن الجزري» حين قال عن أبي حاتم: «وأحسبه أول من صنف في القراءات»^(٣).

وألف في هذا القرن المقرئ الكوفي: أحمد بن جبير (ت ٢٥٨هـ)، كتاباً سماه (كتاب الخمسة)، واختار من كل مصر من

(٤) النشر في القراءات العشر. لابن الجزري تصحيح الشيخ: علي محمد الضباع، نشر المكتبة التجارية بمصر (د.ت) ١/ ٣٤.

(٥) النشر في القراءات العشر. لابن الجزري تصحيح الشيخ: علي محمد الضباع، نشر المكتبة التجارية بمصر (د.ت) ١/ ٣٤.

(٦) المرجع نفسه ١/ ٣٤ وغاية النهاية ١/ ١٦٢.

(١) يقصد بالأمصار الخمسة: المدينة ومكة والكوفة والبصرة ودمشق.

(٢) المرشد الوجيز / ١٦٤ (وكتاب القراءات لأبي عبيد مفقود).

(٣) غاية النهاية ١/ ٣٢٠.

❖ القسم الثالث ❖

إسهام الكوفة في علم القراءات

يتجلى جهد علماء الكوفة في هذا الميدان حين نجد أنهم أسهموا في ثلاثة حقول تتصل بعلم القراءات، وهي:

(١) كتب الاختيارات...

(٢) كتب المفردات...

(٣) كتب القراءات العامة...

-١-

أما «الاختيار في القراءة» فمفهومه أن يعتمد المقرئ إلى مجموعة من قراءات الأئمة المشهورين فيختار من قراءة كل واحد ما يراه «أكثرها من الأئمة أصلاً، وأعربها في كلام العرب لغة، وأصحها في التأويل مذهباً»^(١). من غير أن يخالف في شيء من ذلك الأئمة الذين اختار من قراءاتهم^(٢).

وأول من ألف في «الاختيارات»: المقرئ الكوفي المعروف «طلحة بن مصرف» بن عمرو الهمداني (المتوفى سنة ١١٢هـ) وكان يسمى في عصره (سيد القراء)^(٣).

وقد روى عنه اختياره: فياض بن غزوان الضبي الكوفي، وهو «مقرئ موثق»^(٤). وكذلك وثق في الحديث^(٥).

وأقرأ «فياض» باختيار أستاذه (طلحة)، في الري، وأخذه الناس عنه هناك^(٦).

فإذا تتبعنا تاريخ هذا النمط وجدنا «طلحة بن مصرف» رائده، يليه من الكوفيين «يحيى بن أبي سليم النحوي الكوفي»، فله اختيار «أكثره على قياس العربية»^(٧)، كما يقول أبو عمرو الداني.

ويعد «يحيى النحوي» من علماء النصف الأول من القرن الثاني الهجري، لأنه روى عن الشعبي^(٨)، (المتوفى سنة ١٠٥هـ).

ويليهما أبو جعفر الرؤاسي: محمد بن أبي سارة الكوفي النحوي: أستاذ الكسائي والفراء. وله اختيار في القراءة يروى عنه^(٩)، وقد وصفه ابن الجزري بأنه «إمام مشهور»^(١٠).

(٦) قراءات القراء المعروفين / ١٤٢.

(٧) المرجع نفسه / ١٤٢، ١٥١.

(٨) غاية النهاية ١ / ٣٤٣.

(٩) المرجع نفسه ٢ / ١٣.

(١٠) المرجع نفسه ٢ / ١٣.

(١١) غاية النهاية ١ / ٣٤٣.

(١٢) غاية النهاية ٢ / ٣٧٣.

(١٣) المرجع نفسه ١ / ٣٥٠.

(١٤) غاية النهاية ٢ / ١١٦-١١٧.

(١٥) المرجع نفسه ٢ / ١١٦.

ولدوا وتعلموا اختاروا القراءة به، وهذا تجاهل من قائله.. إلى أن قال: (وإنما ذكرت ذلك لأن قوماً من العامة^(١) يقولون جهلاً ويتعلقون بالخبر، ويتوهمون أن معنى السبعة الأحرف المذكورة في الخبر إتباع هؤلاء الأئمة السبعة، وليس ذلك على ما توهموه، بل طريق أخذ القراءة أن تؤخذ عن إمام ثقة لفظاً عن لفظ، وإماماً عن إمام، إلى أن يتصل بالنبي (ﷺ)).

ثم نعود إلى أهمية ذكر هؤلاء الثلاثة الكوفيين.

وأهمية ذكر القراء الثلاثة: عاصم وحزمة والكسائي، أنهم أصبحوا بعد تأليف كتاب السبعة أئمة يُقتدى بقراءاتهم ويتعبد الناس بها في الصلاة، وغير الصلاة، وغطى ذكرهم من سواهم من القراء أو حجبهم في الأقل^(٢).

غير أن الذي وجدته أن قراءة عاصم بن أبي النجود «حازت قصب السبق واشتهرت منذ وقت مبكر، فقد ذكر «الاندرابي» (ت ٤٧٠هـ) في كتابه: «قراءات القراء المعروفين بروايات الرواة المشهورين»، وهو يتحدث عن قراءة عاصم: (كان قارئ أهل الكوفة ومقرئهم بعد أبي عبد الرحمن السلمي، وأمامهم الذي تمسكوا بقراءته واقتدوا به فيها بعد التابعين إلى وقتنا هذا)^(٣). ووقته هو القرن الخامس الهجري.

وقال المقرئ البغدادي: أحمد بن عبد الله المعروف بالطنافسي (من قراء بغداد في القرن الرابع الهجري): «من أراد أفصح القراءات فعليه بقراءة عاصم».

ولما تحدث مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) عن كتب الاختيارات قال: (وهؤلاء الذين اختاروا إنما قرؤوا لجماعة، وبروايات. فاختر كل واحد مما قرأ وروى قراءة تنسب إليه بلفظ الاختيار)^(٤).

إلى أن قال: «وربما جعلوا الاختيار على ما أتفق عليه نافع وعاصم، فقراءة هذين الإمامين أوثق القراءات وأصحها سنداً، وأفصحها في العربية، ويتلوها في الفصاحة قراءة أبي عمرو والكسائي»^(٥).

وأخيراً أقول: أن قراءة «عاصم» قد كتب لها الفوز الساحق، وأصبحت من القرن الحادي عشر الهجري قراءة جل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها (إلا في المغرب العربي حيث يقرؤون بقراءة نافع). ﴿وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

(١) والخاصة أيضاً. ينظر: لطائف الإشارات ١ / ٨٦.

(٢) النشر ١ / ٣٦.

(٣) قراءات القراء المعروفين بروايات الرواة المشهورين للأندرابي أحمد ابن أبي عمر، تحقيق: د. أحمد نصيف الجنابي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٥٠هـ / ١٩٨٥، ط. ثانية، ٩٥.

(٤) غاية النهاية ١ / ٧٥.

(٥) الإبانة عن معاني القراءات / ٤٩، ٥٠.

وقد طور هذا النمط المقرئ المشهور: أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ)، فالف «المفردات السبع»، وكتابه مطبوع بمصر. وبهذا التأليف أصبحت المفردات تشمل قراءة أكثر من مقرئ واحد.

لكن التأليف على المنحى السابق، في المفردات بقي أيضاً.

-٣-

أما في حقل «القراءات»، بهذه الصيغة العامة، فقد كان المقرئ الكوفي: أبان بن تغلب (ت ١٤١هـ)، أول كوفي يؤلف في هذا الحقل من الدراسات القرآنية، إذ ألف كتاب (القراءات)، الذي ذكره له «الداودي»^(١١)، وقد ذكر غيره ما يخالف هذا (٢١).

و«أبان» مقرئ كوفي، قرأ على ثلاثة من أشهر قراء الكوفة، وهم: عاصم وطلحة بن مصرف والأعمش^(١٢): سليمان بن مهران.

و«أبان» أول من ترجم له ابن الجزري في «طبقات القراء» ووصفه «بالجليل»^(١٣) ولا يخفى على القارئ ما لهذا الوصف من دلالة على جلالة قدر هذا العالم بالقراءات.

ويليه: «زائدة بن قدامة الثقفي» (ت ١٦١هـ).

وقد قرأ على الأعمش. وقرأ عليه الكسائي^(١٤).

وله كتاب في «القراءات»^(١٥).

ويليه كتاب «القراءات»^(١٦) للكسائي (ت ١٨٩هـ). وهو أشهر من أن أعرفه.

وبعد جاء دور: محمد بن سعدان الكوفي الضرير (ت ٢٣١هـ) فالف «كتاب القراءات»^(١٧).

ويليه هارون بن حاتم الكوفي (ت ٢٤٩هـ)، إذ ألف كتاباً في «القراءات»^(١٨)، وروى (هارون) الحروف عن أبي بكر شعبة بن عياش^(١٩).

(١١) طبقات المفسرين للداودي: محمد بن علي (ت ٩٤٥هـ). تحقيق: محمد علي عمر، نشر مكتبة وهبة، بمصر ١٩٧٢ - ١ / ١ إذ ذكر ابن عطية في أول تفسيره / ٦٧، أن يحيى بن يعمر المتوفى ١٢٩هـ ألف كتاباً في القراءات، غير أن قراءة النص الذي وردت فيه الإشارة تدل على أنه ألف كتاباً في نطق المصاحف، وليس في القراءات بمعناها العلمي الذي نقصده في البحث).

(١٢) غاية النهاية ٤ / ١.

(١٣) غاية النهاية ٤ / ١.

(١٤) غاية النهاية ١ / ٢٨٨.

(١٥) طبقات المفسرين ١ / ١٧٥.

(١٦) المرجع نفسه ١ / ٤٠٢.

(١٧) الفهرست / ٣٥.

(١٨) الفهرست / ٣٥.

(١٩) غاية النهاية ٢ / ٣٤٥.

وجاء بعدهم «محمد بن سعدان الكوفي الضرير» (ت ٢٣١هـ). وله اختيار في القراءة، غير أن علماء القراءات كانوا يرون أنه لم يكن دقيقاً فيه، إذ قال المقرئ البغدادي المعروف بابن المنادي: أحمد بن جعفر بن محمد، في كتابه: «تسمية قراء أهل مدينة السلام»: (كان أبو جعفر محمد بن سعدان النحوي الضرير يقرئ بقراءة حمزة، ثم اختار لنفسه، ففسد عليه الأصل والفرع)^(١).

-٢-

أما في حقل «المفردات» فقد كان رائد هذا الفن من التأليف المقرئ الكوفي المشهور: حمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦هـ): أحد القراء السبعة، فهو مؤلف كتاب «قراءة حمزة بن حبيب الزيات»^(٢).

والمفردة هي قراءة مقرئ واحد من أول القرآن إلى آخره وقد أسهم في ذلك المقرئ الكوفي: أبو علي النقار: الحسن بن داود^(٣) بن الحسن (المتوفى قبل سنة ٣٥٠هـ)، بكتابه: «قراءة الأعشى»^(٤).

و«الأعشى» هو المقرئ الكوفي: أبو يوسف يعقوب بن محمد بن سعيد^(٥) التميمي (ت ٢٠٠هـ)، وقد قال فيه المقرئ الكبير: أبو بكر النقاش: (كان الأعشى صاحب قرآن وفرائض، ولست أقدم عليه أحداً في القراءة على أبي بكر)^(٦). ويقصد بأبي بكر: شعبة بن عياش، أشهر تلميذ لعاصم بن أبي النجود. أي: أن الأعشى - من وجهة نظر النقاش - اضبط من روى عن أبي بكر بن عياش.

وقد تطور هذا الفن فأصبح له اسم آخر في القرن الثالث الهجري، إذ كانت المفردة تسمى: «حروف فلان»، ككتاب «حروف عاصم»^(٧)، للمقرئ: عمرو بن الصباح بن صبيح (ت ٢٢١هـ)، الذي كان أحق من روى القراءة عن «حفص»^(٨): تلميذ عاصم، وقرين أبي بكر بن عياش.

أما التسمية «بالمفردة»، فلم تظهر إلا في القرن الرابع الهجري. وأول من سمي كتاباً بهذا الاسم المقرئ: محمد بن أحمد بن عبد الوهاب (٢٧٣-٣٥٥هـ)، إذ ألف «مفردة عاصم»^(٩). وقد وصفه ابن الجزري بأنه: «إمام مقرئ محرر مؤلف»^(١٠).

(١) تاريخ بغداد ٥ / ٣٢٤.

(٢) الفهرست لابن النديم، تحقيق، فلوجل، (ط. لا ييزك ١٨٧١م).

(٣) ترجمته في غاية النهاية ٢ / ٢١٢.

(٤) الفهرست / ٣٢.

(٥) غاية النهاية ٢ / ٢٩٠.

(٦) غاية النهاية ٢ / ٢٩٠.

(٧) الإقناع في القراءات السبع. لابن الباناش ١ / ١٢٢.

(٨) معرفة القراء الكبار. للذهبي ١ / ٢٠٣.

(٩) غاية النهاية ٢ / ٦٩ - ٧٠.

(١٠) غاية النهاية ٢ / ٦٩ - ٧٠.

وهؤلاء جميعاً أساس حركة الإقراء في الكوفة، ومنشئو علم التجويد، وعلم التفسير في الكوفة، لأن أستاذهم كان مفسراً، وكانت قراءته أول قراءة تفسيرية.

فالكوفة رائدة في ميدان الإقراء والتفسير معاً.

وإن أول تأليف أظهر أن للكوفة دوراً أساسياً في القراءات هو أول كتاب يحمل عنوانه عدداً محدداً من القراءات، وهو (كتاب الخمسة) للمقرئ الكوفي أحمد بن جبير (المتوفى ٢٥٨هـ). وقبله ألف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، كتابه (القراءات)، وذكر فيه خمسة عشر قارئاً تخصصوا بالقراءات، منهم خمسة قراء من الكوفة. أي: «ثلث القراء» في كتابه.....!!!

وقد ضمن الكثير من أئمة القراءات في القرن الثالث ثلاثة من قراء الكوفة في مؤلفاتهم مثل أبي حاتم السجستاني في كتابه (القراءات) وإسماعيل بن إسحق القاضي والطبري في كتابيهما عن القراءات.

ولهذا العدد دلالاته الكبيرة على أهمية الكوفة ودورها الرائد، في القراءات والإقراء.

وآخر من نقف عنده المقرئ المعروف ابن مجاهد، مؤلف كتاب السبعة، إذ ألف كتاب السبعة في القراءات (سنة ٣٠٠هـ)، وضمنه ثلاثة من القراء الكوفيين، فأعطى لهم صفة الاستقرار والثبات في عالم القراءات مدة طويلة، ثم أصبحت قراءة «عاصم بن أبي النجود» الكوفي هي قراءة العالمين: العربي والإسلامي (عدا المغرب العربي)، إلى اليوم، فهي خالدة خلود كتاب الله.

أما في حقل التأليف في القراءات فقد كان قراء الكوفة وعلماءها رواداً في حقل (الاختيارات)، وحقل (مفردات القراء). كما كان لهم دور في تطويرها.

وفي الختام.....

أرجو أن أكون قد جليت هذا الموضوع الحيوي المهم وأبرزت أهمية الكوفة ودورها في القراءات وخلود هذا الدور إلى اليوم بخلود قراءة عاصم...

ولا بد من أن أقول في هذا المقام: هذا مبلغ جهدي وقصاري طاقتي، وإن الإنسان مهما بذل ومهما كتب فإن عمله يبقى معرضاً للأخذ والرد، لأنه بشر محدود ينقصه الكمال، وفوقه من أعلم منه (وفوق كل ذي علم عليم).

والحمد لله في الأولى والآخرة، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وقد وصفه ابن الجزري بأنه «مقرئ مشهور»^(١).

ثم يأتي دور كتاب «الجامع في القراءات»^(٢) لأبي هشام الرفاعي: محمد بن يزيد بن محمد بن كثير الكوفي (ت ٢٤٨هـ).

والرفاعي أحد العلماء المعروفين والقراء المشهورين الكبار^(٣).

ودور معاصره أحمد بن جبير (ت ٢٥٨هـ)، الذي ألف كتاباً بهذا العنوان: «الجامع في القراءات»^(٤).

من هذا العرض السريع عرفنا أن علماء الكوفة وقراءها قد أسهموا إسهاماً واضحاً في ثلاثة من حقول التأليف: أولها: حقل «الاختيارات» فكانوا فيه رواداً. وكان لهم تأثير في تطوير هذا النوع من التأليف، في علم القراءات.

وظل التأليف فيه مستمراً إلى القرن الخامس الهجري. وثانيها: التأليف في «القراءة الخاصة»، فكان مقرئهم: حمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦هـ) رائد هذا الفن، الذي تطور بسببه التأليف في المفردة، والمفردات.

والتأليف في «المفردة» ظل مستمراً بعد حمزة أكثر من ألف سنة. وثالثها: حقل التأليف في القراءات العامة. وقد أسهموا فيه إسهاماً واضحاً.

خاتمة البحث ونتائج

لقد كان «دور الكوفة في القراءات» متجلياً في ثلاثة حقول:

الحقل الأول: ريادة الكوفة في الإقراء، وقيام أول مدرسة فيها.

والحقل الثاني: بروز ثلاثة من القراء السبعة من الكوفة.

والحقل الثالث: إسهامها في حركة التأليف في القراءات.

ومن خلال البحث توصلت إلى النتائج الآتية:

أن أول مدرسة (للإقراء) تأسست (سنة ١٧هـ)، وكان مؤسسها عمر بن الخطاب. وكان محلها (المسجد الأعظم) في الكوفة.

وأن أول أستاذ في هذه المدرسة هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود (ت ٣٢هـ): المقرئ المفسر الفقيه المجد.

وأن الطلاب المعيين في تلك المدرسة والمدرسين -فيما بعد- هم تلامذته من التابعين، الذين كان عددهم ثلاثة عشر. وكانوا ثلاثة أنواع، الأول: الجماعة الذين اختصوا بالقراءات. والثاني: الجماعة الذين درسوا القراءات والحديث. والثالث: الذين درسوا القراءات والفقه.

(١) غاية النهاية ٢ / ٣٤٥.

(٢) معرفة القراء الكبار ١ / ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) معرفة القراء الكبار ١ / ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٤) الإقناع في القراءات السبع. لابن البانش ١ / ٢٩٩.

المراجع

- * الإبانة عن معاني القراءات. لمكي بن أبي طالب، تحقيق الدكتور عبد الفتاح شلبي، (ط القاهرة ١٩٦٠م).
- * الإيضاح في القراءات للأندرابي: أحمد بن أبي عمر، (مخطوط مصور).
- * تاريخ بغداد. للخطيب البغدادي: أحمد بن علي، (مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م).
- * تفسير الطبري (المسمى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، نشر: مصطفى البابي الحلبي، بمصر ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م).
- * تهذيب التهذيب. لابن حجر العسقلاني (طبعة حيدر آباد - الدكن ١٣٢٥هـ).
- * التبصرة في القراءات. لمكي بن أبي طالب، منشورات معهد المخطوطات العربية، بالكويت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ع ١٧-٣٠-٢٠١١هـم، بتحقيق الدكتور محيي الدين رمضان
- * الجرح والتعديل. لابن أبي حاتم الرازي (طبعة حيدر آباد - الدكن ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م)
- * كتاب السبعة في القراءات. لابن مجاهد. تحقيق الدكتور شوقي ضيف، ط دار المعارف الثانية، بمصر ١٩٨٠م.
- * سنن أبي داود. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٧١هـ / ١٩٥٢.
- * سير أعلام النبلاء للذهبي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت من ١٤٠١-١٤٠٥ / ١٩٨١-١٩٨٥م
- * صحيح البخاري. مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بمصر ١٣٧٧هـ
- * صحيح مسلم. (من مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده، بمصر سنة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠).
- * طبقات المفسرين. للداودي: محمد بن علي (ت ٩٤٥هـ).

- تحقيق: محمد علي عمر، (نشر مكتبة وهبة، بمصر ١٩٧٢).
- * غاية النهاية في طبقات القراء. لابن الجزري: محمد بن محمد بن محمد، تحقيق: برجستراسر، (نشر: مكتبة الخانجي ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م)
- * الفهرست. لابن النديم. تحقيق: فلوجل، (ط ١٨٧١٩٩٩م)
- * قراءات القراء المعروفين بروايات الرواة المشهورين. للأندرابي:
- أحمد بن أبي عمر، تحقيق: الدكتور أحمد نصيف الجناي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥، ط ثانية).
- * لطائف الإشارات لفنون القراءات. للإمام الحافظ شهاب الدين القسطلاني تحقيق: الشيخ عامر عثمان والدكتور عبد الصبور شاهين، نشر المجلس الأعلى الإسلامي، بالقاهرة ١٣٩٢هـ)
- * مشاهير علماء الأمصار. لابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد التميمي، (ط القاهرة ١٩٥٩).
- * المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز. لأبي شامة المقدسي: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، تحقيق: طيار آلي قولاج ٢ (نشر: دار صادر، بيروت ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م).
- * معرفة القراء الكبار. للذهبي. تحقيق: بشار عواد معروف وشعيب الأرنؤوط وصالح مهدي عباس، (نشر مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م)
- * منجد المقرئين. لابن الجزري، (نشر مكتبة القدسي، بالقاهرة ١٣٥٠هـ)
- * النشر في القراءات العشر. لابن الجزري. تصحيح الشيخ: علي محمد الضباع، نشر المكتبة التجارية بمصر (د.ت).